# ملوك وسحرة

أي نوع من الرجال كان توت عنخ أمون ولماذا حصن قبره بشكل جعلت لعنة الفراعنة فيه أشد تأثيراً منها في قبر أي فرعون آخر؟.

قال هوارد كارتر عن الفرعون الذي مات صغيراً: إن الشيء الوحيد الذي يستحق الذكر في تاريخ حياة هذا الفرعون هو أنه مات ودفن وهذا الحكم بالطبع هو من جانب واحد فقط إذ إنّ توت عنخ أمون لم يكن دولاباً ضخماً في عملية التاريخ المصري ولكن الدواليب الصغيرة لا تقل عن الكبيرة في أهميتها.

لقد انتهت الأسرة الثامنة عشرة للمملكة الحديثة بتوت عنخ أمون وإنَّ تقسيم التاريخ المصري إلى السلالات الثلاثين وترتيب الـ 360 فرعوناً مصرياً والملوك الأجانب في أشكال سلالية، يرجع الفضل به إلى الكاهن المصري (مانيثو) الذي كتب باللغة اليونانية عام 305 ق.م وقد عدد مانيثو ثلاثين سلالة بين (مينا) 3200 ق.م والإسكندر الكبير عام 332ق.م وهذا يشمل المملكة الوسطى والمملكة الحديثة (أو الإمبراطوريَّة) وأخيراً الفترة المتأخرة التي تبدأ بساميتك حوالي (715ق.م) لقد استمرت المملكة القديمة من عام 2850ق.م حتى نهاية عصر العمالقة عام 2025ق.م وقَدْ شهدت هذه المملكة فراعنة عظاماً استلموا سلطة مثل (زوسير) وخوفو وخفرع ومنقرع وأوناسي وتيتي وبيبي أما المملكة الوسطى فقد بدأت بحكم منتوحوتب عام 2025ق.م وانتهت بالأسرة السادسة عشرة وإنهاء حكم الهكسوس ويضع المؤرخون

بداية الإمبراطورية حوالي عام 1610ق . م وانتهت بالعائلة الرابعة والعشرين في عام 715ق . م وإنَّ معظم الشهادات التاريخية التي نعرفها تأتي من خلال تسعمائة السَّنةِ هذه وفي هذه الفترة نرى فراعنة يحملون أسماء أمنحوتب تحوتمس ورعمسيس يطبعون بصماتهم على ذلك العصر .

إن هذه التقسيمات السلالية ليست دقيقة تماماً ولا تزال موضع تعديلات من قبل المدارس العلمية الحديثة وفي العصور القديمة كان المصريون القدماء يعدون الزمن طبقاً لسنوات حكم الإمبراطور عليهم وكانت السلالة الجديدة تبدأ عندما تندثر عائلة ملكية قديمة وتحل محلها عائلة جديدة .

## تعدد الزوجات عند المصريين:

وكما ذكر (أدولف إيرمان) و(هيومان رانكي) كان تعدد الزوجات عملاً مقبولاً في مصر القديمة مع أنه لم يكن في حكم القانون فنحن نعلم أن (تميني) وهو أحد وجهاء مصر العليا العشرة كان متزوجاً من امرأة تدعى (نيبيت) وقد أنجب ولدين وخمس بنات ثم تزوج امرأة أخرى تدعى (هينوت) وأنجب منها ولداً واحداً وثلاث بنات ولم تكن الزوجتان تتخاصمان أبداً فقد سميت (نيبيت) إحدى بناتها باسم (هينوت) بينما سميت هينوت إحدى بناتها بدورها (نيبيت) وكان باستطاعة المصري القديم أن يتزوج عدة نساء وذلك لأنه لم يكن هنالك قانون للزواج في مصر بل كان يعقد عقد الزواج فقط وكان الرجل عادة يتزوج وهو في الخامسة عشر أما البنت فكانت في الثانية عشر أو الثالثة عشرة . وكان العقد يشمل (سنة للأكل) وهي سنة تجربة يمكن فرط الزواج دون أي رسميات في نهايتها وكانت المحظيات والخليلات وأطفالهن يعشْنَ في الحريم ولم يكن لهن أي حقوق من أي نوع كان . ومن المفروض أن يكن جميلات ويحسنَّ الرقص والغناء أيضاً .

وكان لبعض الفراعنة عدة زوجات شرعيات . فإن (تافتيرا وميرنموت) الزوجة الأولى لرعمسيس الثاني مثلاً لم تكن أم ولي العهد بل كانت زوجته الشرعية الثانية

(ايسي نوفري) هي التي أنجبت ولي العهد وقد تزوج رعمسيس الثاني كلا الزوجتين في نفس الوقت وأخيراً رحبت الزوجتان بزوجة ثالثة وهي ابنة ملك الحثيين التي تزوجها الملك المصري لأسباب سياسية بعد أن ساد السلم بينه وبين والدها. وقد كانت مثل هذه الارتباطات الزواجية السياسية عادية وهكذا تزوج الأمير (نحريري) الفتاة (شيتي) وهي وريثة الإقليم السادس عشر وخلال جيلين ازدادت أملاك (نحريري) ثلاثة أضعاف ونحن نعلم أن زواج شمنهوتب لم يكن ارتباطاً حميماً إذ كان قلبه متعلقاً (بزانا) وهي خازنة بيت مال فرعون.

وكان يهم المصريون القدماء أن يبقوا العلاقات السلالية الدموية نقية وصافية وهذا هو أحد الأسباب التي جعلت زواج الأخوات شائعاً خصوصاً بين الفراعنة وحتى الآلهة لم يشذوا عن هذه القاعدة (فاوزيريس) قد تزوج أخته (ايزيس) و«ست» قد تزوج أخته (أخت أصبحت أخيراً مرادفة لكلمة خليلة أو (حبيبة) وهذا ما جعل حل غموض العلاقات المعقدة العائلية أكثر صعوبة.

ولم يتمتع الفراعنة بأية حقوق شرعية خاصة فعدا عن القضايا الدينية كان الشخص العادي يستطيع أن يتصرف كالفرعون تماماً وهذا ينطبق على الزواج أيضاً.

وكان هنالك في القصر امرأة واحدة تدعى الزوجة الشرعية أو (سيدة القصر) وكما كان يحق للفرعون اقتناء محظيات أو خليلات من الحريم فإن المواطن العادي يحق له هذا بشرط أن يكون قادراً على ذلك ورغم ذلك فإن الوضع الاجتماعي للمرأة في مصر القديمة لم يكن أقل من مثيلاتها في الحضارات الأخرى فمثلاً حتى في أقدم الصور المصرية نرى الرجل والمرأة في نفس الحجم إلا أن الأطفال والخدم كانوا يصورون بحجم أصغر.

هنالك ورقة بردي محفوظة في (ليدن) في هولندة وهي تعطي وصفاً حقيقياً للحياة العائلية في مصر القديمة فهي عبارة عن رسالة من أحد قواد الجيش من ممفيس توفيت زوجته وهو بعيد عنها وقد أصبح مريضاً جداً بعد وفاة زوجته ورغم أن (كا)

وهي الروح المسؤولة عن زوجته وعن حماية جميع الموتى المصريين في رحلتهم إلى العالم السفلي هي التي أرسلت له هذا المرض. ولذا وضع هذه الرسالة لزوجته في قبر شخص آخر وهو يقول في تلك الرسالة:

«ما هو الشر الذي فعلته لي حتى أجد نفسي في هذه الحالة التعيسة.

ماذا فعلت حتى تغيظينني من حيث لم أسبب لك أي ضرر وأنا زوجك؟ وحتى هذا اليوم أخفي ماذا؟ مع أنني سوف أحاسب على كلماتي التي تفوهت بها أمام الآلهة التسعة التي تجلس في الغرب وبعد ذلك سوف تقضي بيني وبينك. ماذا فعلت لك؟.

لقد أصبحت زوجتي وأنا شاب صغير وبعد ذلك تقلدت مناصب ولم أسبب لك أي حزن ولكنك لم تتركيني أنعم بأية سعادة، إنّي أدعوك إلى الحساب وعندها يبين الحق من الباطل.

تذكري عندما بدأت أدرب ضباط الفرعون وسائقي عرباته فقد جعلتهم يلقون بأنفسهم أمامك وقد جلبوا الهدايا وألقوها تحت قدميك إني لم أخف عنك أي سر من أسراري طيلة حياتي ولم أتصرف تصرف المراهقين أو أذهب إلى بيت أية امرأة أخرى في حياتي ولم أستمع لوشاية أي شخص ضدك. وعندما نقلت إلى مركزي الحالي كان من المستحيل علي أن آتي لعندك كما كنت أفعل سابقاً وهكذا أرسلت لك زينتي وخبزي وثيابي وقد كان كل هذا لك. إنك لا تعرفين كم من الخير أديته لك وكنت أسأل دائماً عن حالتك وعندما مرضتِ جعلت رئيس الأطباء يأتي ليراك وقد حضر لك أحد الأدوية وعمل كل شيء طلبته منه، وعندما سافرت جنوباً مع الفرعون كانت أفكاري كلها دائماً معك وقضيت ثمانية أشهر دون أن أتناول أي طعام أو أي شراب كإنسان حقيقي.

وعندما رجعنا إلى ممفيس طلبت من الفرعون أن يسمح لي بالقدوم لرؤيتك وقد حزنت كثيراً أنا ورجالي عندما علمت بنبأ وفاتك وقد قدمت ملابسَ الكتان لكي تلفي بها وخطت لك أفضل الثياب ولم أترك شيئاً جيداً لم أقم بعمله من أجلك.

والآن وما زلت وحيداً زهاء ثلاث سنوات ولم أر أي بيت آخر مع أن هذا ليس لائقاً بالنسبة لرجل مثلي ولكنك لا تستطيعين التفريق بين الخير والشر، إنّ أحداً ما سوف يقضي بيني وبينك وأما بالنسبة لأخواتك فإني لم أذهب إلى أي واحدة منهن».

## العلاقات في الأسرة الثامنة عشره:

كانت علاقات الزواج والارتباطات العائلية معقدة في زمن الأسرة السابعة عشرة والثامنة عشرة فقد بدأت الأسرة السادسة عشرة بالفرعون سكنجن ـ رع الذي اتخذ أهوتب زوجة له وقد تزوج ابنه أحموس (طارد الهكسوس من مصر) من أخته (أحمس نفرتيتي) وأنجبا بنتاً اسمها (أحمس) تزوجت من أخيها تحتمس وتكرر بذلك الزواج من الأخت وكان لأخناتون (وهو أمنحوتب الرابع) ثلاث بنات أكبرهن ميرياتون تزوجت من (ساكيري) خلال حياة أخناتون (وقد اشترك ساكيري في الحكم مع أخناتون مدة قصيرة ولكنه مات قبل عمه)، وأما الابنة الثانية لأخناتون وهي ماكيناتون فقد ماتت أيضاً وهي صغيرة وهكذا بقيت صغرى البنات واسمها أنخنسن باتن التي تزوجت توت عنخ أمون وكان يدعى أولاً توت عنخ أتون وقد كان هذا الزواج في سبيل دعم حقها في الميراث لأنها ولدت في العام الثامن من حكم والدها ولقد تم زواجها هذا وهي في التاسعة من عمرها. وهذا سن مبكر للزواج حتى في مصر. ودفعت تلك الزوجة الطفلة ثمناً غالباً لهذا الزواج المبكر فقد قاست من إجهاضين متتاليين وهكذا لم يتكون ولي العهد المنتظر بكل حسرة ولهفة.

وكانت الشخصية الرمادية في بلاط أخناتون في تل العمارنة هي الكاهن الأعظم ومستشار البلاط المدعو (آي) وكانت زوجته (تي جي) ممرضة للملكة «نفرتيتي» وقد احتفظ (آي) بكل خيوط السلطة في يده وكانت مصلحته أن لا يدع أي شخصية قوية تخلف أخناتون لذلك كان الشاب الصغير توت عنخ أمون هو الشخص المناسب.

وكان أول وأهم عمل قام به توت عنخ أمون هو الارتداد عن عبادة الإله الواحد الذي اختاره أختاتون والد زوجته ليكون الإله الرسمي للدولة وكنتيجة لهذا

القرار فقد عزم على ترك ترك تل العمارنة والعودة إلى طيبة وكإشارة لخضوعه لإله طيبة وهو (أمون) بدل الفرعون اسمه من توت عنخ أتون إلى توت عنخ أمون ولم تعد زوجته الشابة تسمي نفسها أنخنسن باتن بل انهوسن أمون. هنالك لوحة تذكارية من معبد الكرنك محفوظة في متحف القاهرة تعالج هذه الفترة وهي فترة إعادة سلطة أمون وتقول هذه المخطوطة: «لقد وجدت المعبد خراباً، والأماكن المقدسة مهجورة والباحات تنمو فيها الأعشاب ولهذا أعدت المقامات والمعابد ووضعت بها الجواهر ووضعت التماثيل وصور الآلهة من الذهب والكهرمان وزينتها بأحجار اللازورد وغيرها من الأحجار الكريمة».

توفي توت عنخ أمون كما رأينا نتيجة لجلطة دموية في الدماغ وهي نتيجة لإصابة في الرأس وهذا الحادث ترك انهوسن أمون أرملة في الخامسة عشر ربيعاً دون أي وريث للعرش وهكذا سنحت الفرصة المواتية (لآي) للاستيلاء على السلطة فبدأ يتآمر بذكاء وكانت الملكة ذات الخمسة عشر ربيعاً العوبة بيديه وكملكة لمصر كانت تعرف تماما ما هي الأخطار المحيطة بها فقد كانت عملية التحنيط سوف تستمر مدة سبعين يوماً وبعدها فان الفرعون الجديد يجب أن يتقدم ويقود الاحتفالات الدينية لفتح فم الفرعون قبل عملية الدفن وخلال السبعين يوما وهو الزمن الذي يمضي بين موت الفرعون وبين مراسيم جنازته عليها أن تجد زوجاً آخر يستطيع أن يخلف توت عنخ أمون الراحل؟ فمن هو هذا الرجل يا ترى؟

لم تستطع انهوسن أمون أن تجد أي رجل في كل مصر وفي ساعة يأسها وقنوطها فكرت أخيراً بملك الحثيين (شوبي لوليما) فكتبت له تقول:

«إن زوجي قد مات وليس لي منه ولد وقَدْ علمت أن لك عدة أبناء كبار، أرسل لي أحد أبنائك وسأتخذ منه زوجاً لي لأني لا أريد أن أتزوج أي رجل من رعاياي».

لم يكن لدى الملكة ذات الخمسة عشر ربيعاً سوى سبعين يوماً لإتمام خططها وكان الوقت اللازم للرسول لتسليم رسالتها من مصر إلى آسيا الصغرى حيث عاش

الحثيون حوالي أربعة عشر يوماً وهذا يعني أنها تستطيع أن تنتظر جواباً خلال شهر على أقرب تقدير ولو كان لدى ملك الحيثين أي تساؤلات فان الاتفاقية سوف تستغرق ستين يوماً على أن يجيب بالسرعة الكلية.

لم يعرف ملك الحثيين ماذا يفعل إزاء الرسالة؟ هل كانت حيلة للإيقاع به وبأبنائه؟ هل كان في النية أخذه أو أخذ أحد أبنائه كرهينة؟ ولكنه أرسل أحد مستشاريه وهو هاتوزيتشن إلى مصر ومعه الجواب. استمعت الملكة لرسالة الرسول بحذر وهو يقرؤها لها:

«كيف تبرهنين لي أنه ليس لديك أمير تتزوجينه ربما كنت ترغبين في خداعي ربما إنَّك لا ترغبين أن يكون أحد أولادي وصيا على العرش؟».

ومع ذلك فقد تدبرت الملكة الأمر وأقنعت الرسول أنها كانت تتكلم الصدق وكانت آخر رسالة لها لملكِ الحثيين تدل على مدى حرصها على بصيص من أمل بَقِيَ لها لتحصل على زوج قبل أن تنتهي مدة السبعين يوماً المحددة فلنسمعها تقول وكلها رجاء وتوسل «لماذا أخدعك؟ ليس لي ابن وإنَّ زوجي قد توفي فهل تظن أنه لو كان لي أي ولد كنتُ اقتربت منك بتلك الحالة المزرية؟ وإنَّني لم أكتب أي كتاب لأي حاكم آخر في أي بلد آخر سواك. أعطني أحد أولادك وسوف يصبح ملكاً على مصر».

بعد أن استلم ملك الحثيين هذه الرسالة آمن بإخلاص الملكة وأرسل ابنه (زانازا) إلى طيبة ولكن الطريق كانت طويلة وكان هناك رجلان في مصر يطمعان بالعرش أحدهما (آي) وكان متأكداً تقريباً أن الأمير الحثي لا يمكن أن يصل إلى طيبة ضمن مدة السبعين يوماً المحددة. وأما الآخر فكان قائداً شاباً هو (حورمحب) وقد كان هذا أيضاً مطلعاً على خطط الملكة ولكنه كان أقل ثقة بنفسه من (آي) ولهذا لم يحاول أن يعبث وقرر أن يرسل حرسا وحامية من عنده لتحية الأمير القادم ولكن حدث أن قتل زانازا وهكذا تأكدت مخاوف والده الأولى بأن رسالة الملكة عبارة عن فخ ومنذ ذلك الوقت أصبح ملك الحثيين يعتبر المصريين ألد أعدائه.

وهنالك في طيبة نجد أن (آي) قد احكم التخطيط بعكس (حورمحب) ففي المساء وقبل موعد جنازة توت عنخ أمون أعلن نفسه وريثا للعرش وفي الصباح أنجز عملية فتح فم الفرعون الراحل ليسمح (للبا) وهي روح الفرعون بأن تترك الجثة وهكذا أصبح (آي) هو الفرعون الجديد.

تبوأ (آي) العرش في مصر ومعه (انهوسن أمون) وقد مر عهدها دون أي حادث ذي بال فقد مات (آي) بعد أربع سنوات واندثرت أخبار الملكة الشابة في زوايا التاريخ المظلم ومن المؤكد أن (حورمحب) قد قتلها ودبر أمر إخفاء الجريمة.

شعر (حورمحب) أن نجمه قد صعد بعد موت (آي) فقد فاز بتأييد كهنة (أمون) وخلال أحد الأعياد الكبيرة توج فرعونا على مصر. ولكي يتمم الوهم والخيال بأن حكمه استمرار للأسرة الثامنة عشرة فقد تزوج من (موتنيد جيمت) وهي أخت (نفرتيتي) ولكن هذا الزواج فقط هو الشيء الوحيد الذي ظل يذكر أي إنسان بالأسرة الثامنة عشرة.

لقد كان هذا الفرعون دكتاتوراً منتقماً جباراً فقد حاول أن يتلف جميع تماثيل من سبقوه وصورهم فحيث كان يظهر اسم توت عنخ أمون كان (حورمحب) ينقره بالإزميل أو يشطبه وقَدْ أوقعت التماثيل أرضاً أو أتلفت كل الآثار التي ترجع إلى فترة عبادة الإله (أتون) هذا وقد استعمل الحجارة التي بنيت بها معابد تل العمارنة كأساسات لبناء ثلاثة أهرامات عظيمة بناها أمام معبد أمون في طيبة وعمل كل ما في وسعه لطبع بصماته على التاريخ ولمحو كل ما عمله سابقوه وحتى القبور لمْ يراع حرمتها فقد أتلف قبور رجال بلاط توت عنخ أمون و(آي) وكل مظهر من مظاهر حكمهما محاها نهائياً من الوجود. كتبت إحدى الخبيرات في التاريخ المصري وهي فرنسية تدعى كريستيانا: إنّ كل ما فعله حورمحب بدا نتيجة تفكير وتخطيط فقد عمل بتعصب تشوبه الجريمة لكسب تأييد أولئك الذين قاموا بالثورة المضادة لفكرة التوحيد التي قام بها (أخناتون) ولكن رغم المنطقية الواضحة لأعماله فقد ارتكب

غلطة واحدة فمع أنه عمل ما في وسعه ليضرب اسم توت عنخ أمون إلا أنه لم ينهب قبره أبداً.

وقد أدهش هذا التصرف جميع علماء الآثار المصرية لمدة طويلة فهم يقولون: إنَّهُ ليس هنالك سبب واضح لماذا أحجم حورمحب عن نهب قبر توت عنخ أمون ولم يمسه رغما عن أنه قام بإتلاف وطمس كل آثاره وأعماله ومما يزيد في الدهشة أن كل إنسان في ذلك الوقت كان يعلم عن الثروة العظيمة التي دفنت مع الفرعون، هذا مع شدة حرص (حورمحب) على عدم تفويت أي فرصة سانحة لاغناء بيت ماله فضلاً عن أن الكهنة كانوا يدعمونه ولم يكونوا ليقاوموه أو يمنعوه من هذا العمل. كلا إنَّ هنالك سبباً واحداً فقط لإحجام حورمحب عن نهب القبر فقبل ختم القبر كان الكهنة قد ضمنوا سلامته بالقوى السرية الغامضة التي لا يمكن إبطال مفعولها وإلا لكانت اللعنة أصابت الفرعون حورمحب نفسه.

## قوى الكهنة السوداء:

إن مركز الكاهن واعتباره في مصر القديمة كان محاطاً بهالة من الأسرار والغموض وكان الكهنة هم الطبقة المتنورة من الشعب وكانت لديهم المعرفة التي تعوز عامة الشعب والمعرفة هي (قوة) حتى قبل خمسة آلاف عام.

وبعكس الوظائف الأخرى كانت الكهانة لا تورث فقد كانت مراتبها تكتسب بالعمل والجِدّ من قبل أولئك الذين يشغلونها وكانت هنالك مراتب بين الكهنة أنفسهم ففي المملكة الحديثة كانت هنالك خمس مراتب وإنَّ حياة الكاهن بكنيشونز الذي بقي ما سجله في القرن الثاني عشر ق. م سالما وهو يظهر الطريق الذي يقطعه الكاهن لينتقل من مرتبة (وهيب) وهي أدنى مرتبة كهنوتية إلى مرتبة رئيس الكهنة وقد تدرب بكنيشونز كفارس في جيش الفرعون وقد استطاع أن يلفت النظر لمواهبه وذكائه الممتاز وعندما بلغ السابعة عشرة قبل (ككاهن قارئ) في معبد أمون في طيبة وبعد أربع سنوات رُقي إلى المرتبة التالية من مراتب كهنة أمون وكان عليه أن يظل في تلك المرتبة

اثنَيْ عشر عاماً وفي الوقت الذي ارتفع به إلى المرتبة الثالثة كان قد قضى من الخدمة ثلاثة وثلاثين عاماً وقد أمضى الخمسة عشر عاماً التالية بصفة كاهن ثالث ثم رقي إلى منصب كاهن ثانٍ وبقي فيها مدة اثنَيْ عشر عاماً وعندما أصبح في الستين سماه رعمسيس الثاني (رئيس كهنة أمون) وقد عاش حتى السابعة والثمانين. مثل هذا الرجل كان يمثل مصدرا من مصادر القوة والسلطة الحقيقية للكهنة ورجال البلاط والعلماء أما بالنسبة لعامة الشعب فاعتبره ساحراً يستطيع أن يعمل كل شيء ولم يكن السن والوظيفة هي التي ترفع رئيس الكهنة عالياً فوق عامة الشعب بل كانت قدرته العقلية ومهارته تلعب دوراً في هذا المضمار فقد كان بكنيشونز بصفته رئيس الكهنة يترأس نوعاً مما يمكن أن نسميه (جامعة) فقد كان معبد أمون مأوىً ومدرسة للفنون ومدرسة للموسيقى وكلية للهندسة وكانت منطقة المعبد أكبر وأغنى من قصر الفرعون وحتى لو كان الفرعون يمارس كل السلطات المرئية إلا أن الكهنة كان بأيديهم الخيوط غير المرئية التي تحرك تلك السلطة.

الطبيب والكاهن والساحر كانوا شخصاً واحداً هو، الكاهن فحسب ولم يكن (بنتو) وهو طبيب اخناتون الخاص مستشار الفرعون الخاص فحسب بل كان الخادم الأول لمعبد الإله أتون فالسحرة رجال أقوياء يتودد الفرعون إليهم لأنهم يملكون قوى خارقة علمية لم يكن من أحد قادراً على الحصول عليها فقد ألّفوا فرقة دينية أو طبقة خاصة لا تقبل أن تفضي بما لديها من علم لأي شخص آخر وقد كانت اكتشافاتهم السحرية والتنجيمية والعلمية والطبية تكتب على أوراق البردي بشكل ملفات ولفائف يرجع إليها عند اللزوم وقد وصلت إلينا مثل هذه النصوص ابتداءً من السلالة الخامسة (2500 ـ 2350ق. م) عندما سقط الوزير (ويش بتاح) ميتا أمام سيده الفرعون نفيري كار نتيجة لضربة (كما يظن) وعندها استنجد الملك بالكهنة والأطباء وجلب له صندوقاً خشبياً يحتوي لفائف من أوراق البردي فيها تشخيص للأمراض ووصف علاجات سرية وفي كتاب بردي (إيبرس) وهو كتاب سحري طبي تتواتر الإشارة فيه

إلى (أسرار الأطباء) خصوصاً عند مناقشة بعض العلاجات حيث يندمج الطب مع الأسرار اندماجاً كلياً وعندما يكون الفرعون راضياً عن أعمال الكهنة ومنجزاتهم كانت تلك الفئة تستفيد وتظل بخير وبعد معركة مظفرة قدم الفرعون رعمسيس الثالث (1197 ـ 1165 ق . م) لكهنة معبده 8646 عبداً و32 طناً من الذهب . وفي القرن الحادي عشر ق . م كان كهنة الإله أمون يملكون 2400 حقلاً و83 سفينة و46 حوضاً للسفن و000 . 420 رأس ماشية وكان العبيد تحت رحمة الكهنة الكلية وللكهنة الحق بالحكم بإعدام أي عبد وهذا الحق لم يكن يملكه المواطنون العاديون وكان الأطباء يجرون عمليات جراحة تجريبية على العبيد أولاً باعتبار أن هذه العمليات معادلة لحكم الموت وكانت تلك العمليات تبدأ بحشو الأضراس وتنتهي بعمليات فتح الدماغ وقد سجل السحرة والأطباء نتائج هذه العمليات في كتبهم السرية .

## الطب والسحر:

لقد واجه الكهنة المصريون مهنة شاقة وهي التناسق بين الوضع عندما اتحد الآلهةُ العديدون في الأقاليم في ممالك ثم وحِّدت الممالك بعضها مع بعض فأصبحت إمبراطورية ومن العجيب أن السحر أصبح أكثر شعبية فكل مدينة أو منطقة كان لها الإله المحلي الخاص وكل وحدة سياسية كان يتبعها وحده دينية وكان الكهنة الساهرون اليقظون هم الذين يقضون بتنحية إله من الآلهة وتجريده من ألوهيته أو دمج إلهين باسم إله واحد وهكذا أصبح (رع) و(أتوم) إلهاً واحداً وكذلك (شو) و[أونوريس] أو (بتاح وسوكاريس) وأخيراً أضيف أوزيريس إلى الإلهين الأخيرين حتى إنَّ أحدهم تكلم عن الثالوث الإلهي فقد كان من الضروري إسكات المتشككين ودعم إرادة وقدرتهم الآلهة .

ولإنجاز هذه التغييرات استعمل الكهنة المعرفة العلمية التي كان الشعب يثق بها ثقة عمياء والتي ما تزال تبعث في نفوسنا في هذه الأيام الإعجاب والدهشة فالمعلومات حول الأمور الطبية والسحر في مصر القديمة مدونة في سبع أوراق بردي كبيرة وهي تختلف في حجمها ومحتوياتها وتاريخها .

وإنَّ أكبر هذه الأوراق وأشهرَها هي أوراق بردي (إيبروس) فقد كتبت في بداية المملكة الحديثة فهي في صفحاتها المئة والثمانية وتغطيتها الواسعة لموضوعها تعتبر مرجعاً طبياً كلاسيكياً. ويأتي بعدها في الضخامة ورقة بردي (برلين) فهي عبارة عن 24 صفحة وقد كتبت في حوالي نهاية المملكة الحديثة ثم ورقة (أدوين سميث) وورقة (هرست) إذ تحتوي الأولى على اثنتين وعشرين صفحة والثانية على سبعَ عشرةَ صفحة ويرجع تاريخها إلى حوالي 550 ق. م وأقدم ورقتين بالحقيقة هما ورقتا (كاهون) (آ) و(ب) اللتان يجب أن تكونا قد كتبتا حوالي 900 ق. م وكلاهما غير تامتين فورقة كاهون (آ) عبارة عن كتيب يبحث في الأمراض النسائية أما كاهون (ب) فهي جزء من عمل كبير شامل في الطب البيطري وأخيراً هنالك ورقة بردي (لندن) ذات الثماني عشرة صفحة وهي من أيام توت عنخ أمون وتحتوي وصفات صيدلانية ورقيات سحرية للأم وطفلها وهذه شهادة كبرى عن تلازم الطب والسحر وارتباطهما الوثيق في مصر القديمة وهذه الأوراق فيها وصفات صيدلانية حقيقية وكما يظهر بعد إلقاء نظرة على أوراق بردي إيبرس وسمث نجد أن هذه الوصفات يمكن أن تستعمل بشكل ناجح الآن وفي كتاب أمراض الأمعاء والمعدة مثلاً نجد التشخيص والمداواة التالية:

«هذه تعليمات لفحص الذي يشكو من متاعب في معدته: فإذا فحصت رجلا به قرحة معدية أو رجلاً يشكو من متاعب عند الأكل لأن بطنه ضيق وقلبه مريض وإذا كان يشكو من التهاب في الكبد فيجب عليك أن تنظر إليه وهو ممدد على ظهره فإذا كانت معدته تبدو ساخنة بسبب القرحة فيجب أن تخبر المريض أن لديه احتقاناً في الكبد ويجب أن تحضر علاجاً وصفه في كتاب الأعشاب السري كما يفعل الأطباء، اطحن العقار وضع الحجارة مع العقار ثم أذبها في الماء. ويجب على المريض أن يشرب من هذا الدواء لمدة أربعة أيام لكي يفرغ معدته».

ولكن إذا كان الجانب الأيمن من المعدة يظهر ساخناً بينما يظهر القسم الأيسر بارداً فيجب حينئذ أن تخبره أن مرضه ينفرج وفيما بعد يجب أن تفحصه ثانية وإذا وجدت جميع منطقة المعدة باردة عند اللمس فاخبره أن الاحتقان قد زال عن كبده وأن جسمه قد تقبل العلاج.

هنالك صورة ورقة بردي إيبرس وسمت باسم مكتشفها ومترجمها وهو عالم ألماني بالحضارة المصرية (جورج إيبرس) وهذه الوثيقة تحوي على وصفات طبية وتعليمات للعلاج وهي تعود إلى عهد المملكة الحديثة (القرن السابع عشر ق. م) وهي مكتوبة بالخط الهيراطيقي.

وأما ورقة بردي أدوين سميث فتحتوي على تعليمات بخصوص جراحة الإسعافات وذلك عند حدوث جرح في العظم الوجني (وطبقاً لورقة بردي إنَّ هذه العظمة تقع بين زاوية العين وشحمة الأذن والفك السفلي) إذا فحصت شخصاً ما مصاباً بجرح في العظم الوجني دون أن يكون بارزاً فعليك أن تنظر إليه بإمعان فإذا وجدت العظمة الوجنية سالمة دون أي انشقاق أو أي ثقب أو أي كسر فعند ذلك تقول للمريض:

**الصورة ص 108 زنكوغراف صورة صفحة من أوراق البردي تمثل هذه الصورة صفحة بابيروس إيبرس سميت باسم مكتشفها وترجمها العالم الألماني جورج إيبرس وتحتوي هذه الوثيقة على وصفات طبية وتعليمات للمعالجة الطبيعية وترجع إلى المملكة الحديثة (القرن 17 ق.م) وهي مكتوبة بالخط الهيراطقي.**

«إنَّ لديك جرحاً في العظم الوجني وأنا سوف أعالج هذا الجرح». ففي اليوم الأول يجب أن تضع عليه لحماً طازجاً وبعد ذلك عالجه بالمراهم الملطفة والعسل. وافعل ذلك كل يوم حتى يشفى والجرح الذي لا يفتح ولا يصل إلى العظم هو جرح بسيط أما الذي يصل إلى العظم دون أن يفتح أو دون أن تكون له حافات يدعى بالجرح الضيق». إنَّ هذا النوع من التعليمات يتفق تماماً مع أسلوب المصريين القدماء في تعليم العلوم وكتب الرياضيات تستعمل نفس الأسلوب التعليمي الوعظي. وإنَّ كلمة (أنت) التي يخاطب بها الطبيب مقابلها (هو) التي تخبر عن المريض وقلما يذكر شخص الطبيب وعلى العموم كانوا يقولون «سكين الطبيب» أو «طرق الطبيب السرية» أو كتاب الطبيب العظيم عن أمراض القلب وأسرارها.

وكان من واجبات الطبيب في مصر القديمة أن يفحص لحم الأضحيَة لأغراضٍ دينية وهذه إحدى وظائفه الكثيرة وكان ساحراً وصيدلياً وكاهنا وشافياً وكان بالتأكيد يملك قوى خارقة وله تأثير أكبر مما كان للطبيب في (روما) القديمة وإذا قارنا حماة الأطباء في روما بحماة الأطباء في مصر نجد فارقاً عظيماً فإن إله الشفاء الروماني المسؤول عن الأطباء كان إلهاً من الدرجة الثانية بينما في مصر كان الإله هو ذو اليد الواقية للأطباء ولم يكن (ثوث) هو الإله الوحيد المسؤول عن الطب فأمون ومينا وتشونس وحورس كل هؤلاء كان لديهم القدرة على الشفاء وكان من المعتقد أن أمون له القدرة على شفاء أمراض العيون دون أية أدوية وكان (مينا) يشفي المريض ويحافظ على صحة الأصحاء وكان تشوس هو الإله الذي يطرد الشياطين وكانت كلمة حورس تخفض حرارة الحميات وتشفي المرضى.

ويذكر في ورقة بردي إيبرس بعض الأدوية غير العادية لأمراض العين التي كانت واسعة الانتشار في كل من مصر القديمة والحديثة وهكذا فهي توصي بنزع شعر حاجبَيْ العين وأهدابها ودهنها بدم السحالي كعلاج لانحراف الأهداب وقد ذكر (ديوسكوريديس) وهو طبيب يوناني عاش بعد ولادة المسيح أن المصريين اقترحوا

استعمال دم الحرباء وقد أوصى هو نفسه أيضاً باستعمال نعال الأحذية المحترقة لعلاج الحروق وهذه النصيحة الطبية هي نفسها ذكرت في أوراق بردي إيبرس بشكل مختلف قليلاً بخصوص الجلود المحترقة وكان احمرار العينيين يعالج بحليب امرأة حبلى وأما ورقة بردي لندن فهي تعزو ضعف النظر إلى تدخل الشياطين والأرواح وهذا هو السبب الذي جعل المعالجة لا تهتم بالمرض نفسه بل تتركز على الرقى والسحر لطرد الشياطين والأرواح.

وقد أعطيت نصائح طبية محضة لمعالجة العيون وهكذا فإنَّ ورقة بردي لندن تنصح بوضع كبد البقر فوق نار بطيئة ثم صب العصارة الناتجة فوق العينيين بينما تقترح ورقة بردي إيبرس وضع قطعة من كبد ثور مشوية بعد عصرها فوق العينيين.
وأما الرقى السحرية بالنسبة للأم وطفلها فقد اقترحت أن كثرة إفراز اللعاب من قبل الطفل أثناء التسنين (أي بروز الأسنان) يمكن أن يضبط بوضع الفئران الحية في أفواه الأطفال أو بجعل الأطفال يأكلون فاراً مفروماً. وهنالك نصوص مصرية متعددة تتحدث عن القوى السرية ففي كتاب (حكايات قصيرة) يذكر كيف أن الإله (ثوث) طالب «رع» بأن يعيد له كتاب سحر كان (ني نفر كي بتاح) قد سرقه وكيف أنَّ الإله رع رضخ لطلب (ثوث) وأرسل قوة إلهية من السماء ليتأكد أن السارق سوف لن يعود بسلام إلى ممفيس.

وأما ورقة البردي السحرية رقم (11) فهي تتحدث عن (القوى الإلهية) التي توجد في مدينة «بوباستيس» ويشير كتاب الأموات في (بامونت) إليها أيضاً عندما يتحدث عن القوى الإلهية التي تخرج من السراديب السرية تحت المدينة وأن اسم قاضي الأموات يعني ترجمته (البوباشي) أي الذي يخرج من السراديب.
إنَّ جميع هذه القوى الخفية لم تكن تستدعى لحماية الأحياء فلماذا لا يطلب هذه القوى سوى الأموات والآلهة؟ إن أبسط تفسير يبدو هو أنَّ هذه القوى كانت مميتة ومهلكة وإذا افترضنا أن الفراعنة قد قاموا بحماية قبورهم بواسطتها فإنَّنا نكون قد سرنا شوطاً كبيراً في كشف سر لعنة الفراعنة.

وهنالك نقطة غريبة أخرى وهي أنه ليس لدينا وثائق تخبرنا أين وكيف كان الأطباء يتعلمون الطب والحقيقة أن هذه القضية غامضة وسرية جداً. ولم تتوفر لنا أي سجلات تشير إلى وجود مدارس طبية إلا في الفترة الحديثة المتأخرة من تاريخ مصر ولقد افتتحت مدرسة طبية في (سايس) خلال حكم داريوس الأول حوالي عام 500 ق.م ولكن لم يكن لتلكَ المدرسة أي صفات مشتركة مع الثقافة الطبية في مصر القديمة فقد أرسل داريوس الذي حكم مصر رئيس أطبائه المدعو (أودثا هاريسنت) ليؤسس مدرسة في دلتا النيل.

لم تكن المستشفيات معروفة في مصر خلال الفترة الواقعة بين المملكة القديمة والحديثة ومثل هذه المؤسسات (أي المستشفيات) لو وجدت لكانت مبتذلة ولكانت مفتقرةً لكثير من الأشياء بالنسبة للخلفية السرية والطقوس الباطنية التي كانت موجودة. فكلٌّ من الطبيب أو الساحر كان يستدعى إلى بيت المريض وعندما يصل كان يستقبل بما يليق به من الاحترام والحفاوة لأن الطبيب كان يبدو في عيون الشعب فناناً فوق جميع البشر يستطيع أن يشفي كل شخص وكل شيء حتى العشاق.

وكان الأطباء المصريون القدماء يعرفون ثلاث طرق للمعالجة الجراحية والطبية والسحرية، وكانت المعالجة الجراحية تشمل العمليات الجراحية فعندما يستعد الطبيب لفصد الدم لمريض يجب أن يسخن السكين قبل العمل ويجب أن يهتم اهتماماً شديداً أن توضع العظام والمفاصل في مكانها، وأن تربط الجروح وتضمد مع الاهتمام بتفهم أساليب التعقيم، وكانت العظام المكسورة توضع بين شظايا وأنابيب وتلف قطع القصب بالكتان وكانت هذه تستعمل في التغذية الصناعية وتقوية العظام وقد توصلوا إلى عمل جسر بين الأضراس وكانت الأسنان القديمة توضع في الفجوة بين سنَّين صحيحين وتشد بواسطة أسلاك من الذهب.

أما المعالجة الطبية فتشمل وصفات من السوائل والمراهم والمساحيق وحتى التحاميل وكانت المساحيق تحرق ويستنشق دخانها وكانت التعليمات بتناول الحبوب

الدوائية والعقاقير التي ينتجها الأطباء المصريون لا تختلف عن التعليمات في فن الصيدلة الحديثة ونسمع قولهم «يؤخذ هذا الدواء قبل الذهاب إلى النوم» أو (يؤخَذُ مرتّين كل يوم) وكانت هذه التعليمات شائعة وأخيراً كان الأطباء يستعملون المعالجات السحرية التي كانت تستعمل جنباً إلى جنب مع الطريقتين السابقتين.

ونحن نعلم شيئاً حول الحيل التي يمكن أن تواكب الاعتقاد العام بالسحر ولكنها سهلة التفسير طبياً مثلاً كان الأطباء يرسمون صورة على يد المريض الذي كان يقاسي من الألم أو السم وبعد ذلك يطلبون منه أن يلحس الصورة. ولم تكن هذه الصورة تدهَن بالدهان بل بعقار سائل فإذا نجحت تلك العملية كانت تعتبر من عمل الإلهة.

## الكتب السرية:

كانت الفجوة الثقافية في مصر عبارة عن هوة سحيقة فكانت هنالك طبقة صغيرة متنورة تواجه كتلاً من الشعب الأمي الجاهل الذي لم يكن بإمكانه تفسير أي معرفة علمية إلا بالسحر. وهذه الحقيقة أصبحت لها نتائجها بالنسبة للتاريخ المصريّ التالي وكانت مكتبات الفراعنة تحتوي كتباً عن السحر فضلاً عن المؤلفات التقليدية والنصوص الطبية وما يدعونه بكتب الحكمة ويذكر الدكتور (إيرمان) أنه حتى المثقفون كانوا يقفون بخشوع وإجلال واحترام أمامَ مؤلفي تلك الكتب ويعتبرونهم الآلهة على الأرض أو آلهة الحكمة، وقد أدعى أحد الكهنَة في القرن السابع أنه وجد واحداً من تلك الكتب المختصة بالأسرار في قبر حيوان. ووجدت الكتب الأخرى في قوارير موضوعة قرب المومياءات وكان المصريون يعترفون بالشخص رئيساً للكهنة عند حفظه الكتب المقدسة القديمة عن ظهر قلب.

لا شك أن فترة الانتقال من السحر والخرافات إلى المعرفة العلمية كانت فترة مرنة ومائعة وهكذا فقد وصلنا (تقويم) من المملكة المتوسطة يدعى به الثامن عشر من الشهر يوماً فيه الخير وأما التاسع من الشهر فهو يوم منحوس واليوم الثالث بيْنَ بَينْ وهذا المفهوم الأساسي يصف بعض الأيام بالسعادة وبعضها بالنحس. فالساعة

البيولوجية المنظمة تشبه هذه النظرية . وفي ذلك الزمن كما هو الآن لم تكن فكرة الساعة البيولوجية مقبولة فنحن نعرف من إحدى أوراق البردي من كتاب مدرسي أن هذه الفكرة كانت تعلم للصغار والكتاب يقول : إنَّ اليوم يكون سعيداً أو غير سعيد وذلك بالنسبة لما حدث في ذلك اليوم في تاريخ الإلهة .

لا يمكننا أن نرسم خطوطاً معينة فليس من الصحيح أن تقول : إنَّ كل شيء يشير إلى ما وراء الطبيعة سحر فليس هنالك سحر في وضع الطعام في القبور ورسم الملابس والأثاث على جدران القبور والمقاصير أو كتابة الرقى والتعاويذ فهذه جميعاً هي قضايا تقاليد وديانات ولكن السحرة والمشعوذين استخدموا هذه الاعتقادات الشعبية لكي يستفيدوا مادياً بمساعدة الطرق العلمية .

وكانت الحاجة إلى السحر تلمس في كل مظاهر الحياة فالسحرة هم الذين كانوا يستحثون نزول المطر وهبوب الرياح وهم الذين كانوا يحمون الرجال من الأسود في الصحارى والتماسيح في نهر النيل وكانت هنالك رقية سحرية تتلى في كل صباح لحماية الفرعون من أعدائه وقد وجدت كسرةٌ أثرية من آنية فخارية في طيبة تظهر إلى أي مدى كانت هذه الرقيات والتضرعات والتوسلات تشير حتى في بداية المملكة المتوسطة (حوالي 2000 ق . م) وفي هذه المدة تذكر تفاصيل عن تحطيم وتكسير الجرار الفخارية فقد أمر أحد فراعنة الأسرة الحادية عشرة بكتابة أسماء جميع أعدائه على جرار فخارية كبيرة وهذه الأسماء تشمل (بكواي) حاكم (اوباتس) وجميع أقاربه وجميع سكان كوش وميجار وشعات بالإضافة إلى ذلك الأقوياء منهم والعدّائين وحلفاءهم وأصدقاءهم وأولئك الذين سيصبحون أعداءنا على هذه الأرض وكان هذا يشمل أمراء ليبيا وفلسطين وأخيراً كبار المستشارين في بلاده وقد سميت أسماؤهم كلهم وحكم عليهم بالموت وكانوا لا يزالون يعتقدون بأن هؤلاء سوف يموتون في اللحظة التي تكسر بها الجرة التي كتبت عليها أسماؤهم . لقد ازداد الضغط بطلب السحرة لعمل نتائج فقد أدرك الناس أن الرقى السحرية الغالية والمكلفة كانت

بحاجة لمساعدة خارجية لتعمل وحالما ارتفع المستوى الثقافي الشعبي في مصر ازداد الطلب على الرقى السحرية حتى إنَّ ذلك الطلب أصبح أكثر عنفا وتهديداً.

ونجد في النصوص التي يرجع عهدها إلى عصر الأهرامات بعض الرقى والتعاويذ كالآتية:

«يا آلهة الأفق إنكم إذا كنتم ترغبون بأن يحيا (أتوم) وكما أنكم تنظفون أنفسكم بالزيت وتلبسون ملابسكم أو تتناولون طعامكم فأرجو أن تمدوا له يد العون وترجعوه إلى بر الأمان». إنَّ هذه الجملة تشير إلى نفادِ الصبر أو قلة الثقة بالنفس ومن الأسهل أن نفسرها بأنها صرخة للاستنجاد ولكن يأس هذا الكاهن يصبح أكثر وضوحاً عندما يقول:

«ولكن إذا لم تساعدوا في إرجاع جثة الميت إلى السفينة فإنَّه سوف يمزق خصل الشعر في رؤوسكم وكأنها براعم الأزهار في الحقل».

أليس من العجيب أن نرى كاهناً قد فقد الأمل بآلهتِهِ ونفسه وخيبة الأمل المريرة تملأ نفسه يلجأ إلى العلم لمساعدته في دعم ثقته بالنفس أو ليس من العجيب أن نرى أن الكهنة والأطباء قد أصبحوا متورطين بالسحر وبالاختصار فقد ثبت لنا بعْدَ دراسة المصادر الموجودة بين أيدينا أن العلم كان يستعمل كدعاية لتثبيت اللاهوت وهكذا فإن الأسرار العلمية يقع على عاتقها مسؤولية كبيرة في تفسير قضية لعنة الفراعنة.